منارات

manarat

ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة الهدى للإعلام والثقافة والفنون

فخري كريم

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير

www.almadasupplements.com

العدد (5051) السنة التاسعة عشرة - الاربعاء (27) تشرين الأول 2021

حسن حنفي

سيرة تنوير

2021 - 1935

حسن حنفي:

النخبة الثقافية تقع في أخطاء جسيمة بسبب تملقها للجماهير ورجال الدين

محمود قرني

ثمة أسئلة لا نهائية يطرحها حوار مع مفكر كبير مثل الدكتور حسن حنفي. فقد وهب الرجل مشروعه للإجابة عن أسئلة عصية، لا سيما أنه يعمل على حقل شائك هو الفلسفة الإسلامية التي ظل حضورها إشكاليًا في التاريخ الإسلامي. وقد كان علماء الكلام محط هجوم السلطات المحافظة عبر التاريخ، وهو الأمر الذي تمخض عنه صراع بين الفكر المعتزلي بطبيعته العقلانية والفكر الأشعري الذي يؤمن به حنفي وإن انتقده في مواضع عدة. في الوقت نفسه فإن السؤال عن الصراع الذي يجب على الدولة العربية أن تخوضه ضد «أسواق العُصاب الديني» لم يجد إجابة ملائمة حتى الآن. وهذا ما حاوله الدكتور حسن حنفي وغيره من المفكرين الذين يُصنَّفون كرموز لتيار اليسار الإسلامي. ربما لهذا السبب كان لا بد لهذا الحوار أن ينطلق من سؤال جوهري طرحه مفكرنا في مقدمة موسوعته «من النقل إلى العقل» وما إذا كان يمكن أن تنجح عقلانية عربية مستمدة من العقلانية الغربية أو الرياضية ومقلدة لها في حين العقلية العربية مغروزة في العلوم النقلية؟

لقد سعى مفكرنا منذ كتابه المهم «التراث والتجديد» إلى التأسيس لعلم إنساني شامل، لكن فرادته تكمن في أن هذا العلم يقوم على فكرة الوحي والكتب المقدسة رغم أنها تمثل أعلى درجات المعرفة الحدسية وليس العلمية. أما على مستوى القراءة والتأويل فقد أشار في خاتمة المجلد الأول لكتابه من «النقل إلى العقل» إلى مشكلة وصف القدماء لفضائل القرآن عبر الرواية.

ويتفق حسن حنفي مع كثير من الباحثين والمفكرين على أن ابن تيمية والغزالي وغيرهما حققوا نصرًا أشعريًا ضد علماء الكلام والمعتزليين عامة، وهو الأمر الذي جعل النهايات تفضي إلى ما نحن فيه. ورغم أن هؤلاء المعتزليين كانوا جزءًا من بنية تسلطية أسست لإمبراطورية واسعة قامت على الطاعة، فإنها حققت نصرًا ساحقًا لأنها كانت الأكثر براغماتية، وهو أمر يبدو من الحتميات السياسية. ومع ذلك فإن مفكرنا يرفض الهوية ذات المرجعية الدينية والعرقية والطائفية، مقابل الدعوة لهوية إنسانية نابعة من الذات لتستطيع تجاوز التفاوت والتفرقة بين البشر.

على جانب آخر كانت ترجمته المهمة لـ«إسبينوزا.. رسالة في اللاهوت والسياسة» مصدر تأثير بالغ في مسار الفلسفة العربية. ففضلاً عن أن هذا الكتاب واحد من أهم مؤلفات إسبينوزا فهو أيضًا رسالة في فصل العقل عن النقل. وقد انتهى حنفي نهاية إسبينوزا نفسه مؤمنًا بأولوية حسم الصراع لصالح العقل في مشروع اليسار الإسلامي حسبما فعل الغرب مع كنيسته.

أما الاستشراق التقليدي الذي وصم العقلية السامية عمومًا بالقصور بسبب رفضها الفطري للأبنية العقلية والالتفاف فحسب حول فكرة التوحيد، فيرى حنفي أن جزءًا من الاستشراق القديم ظل يعمل في سياق النموذج الذي تعامل مع الشرق بوصفه مسرحًا لاستعراض القوة، وأنه لا يعدو أن يكون حالة فلكلورية كما يرى إدوارد سعيد.

وقد ذهبت إلى الدكتور حسن حنفي حيث يقيم في حي مدينة نصر أقصى شمال شرق القاهرة. كنت أقلعت عن العمل الصحفي منذ سنوات طويلة، لكنَّ حوارًا مع مفكر بحجم حسن حنفي حافز كاف لإعادة النظر في هذا الموقف. المكان بسيط جداً. الرجل أصبح قعيدًا يحمله كرسي متحرك. مكتبه صغير جدًا لا يتجاوز ستين سنتيمترًا، يعيش إلى جواره شاب اسمه محمود يقوم على قضاء حاجاته ويقوم بمهمة سكرتيره الخاص. أمامه كومة من الكتب والأوراق تتوسطها وريقات كتبت بقلم الفلوماستر العريض باللون الأخضر. ربما كانت تلك الأوراق تحوي بعض العناوين التي سيراجعها في أثناء حديثه. وعندما أطلعني الدكتور حنفي، كما ترون في هذا الحوار، على ملابسات نشر كتبه وكيف يتعامل معه الناشرون وعلى رأسهم هيئات الدولة في مصر سنتأكد من الأسباب الحقيقية التي أدت إلى ما نحن فيه. كان الرجل باشا مرحبا، لكنه بسبب اعتلال صحته، كان حريصًا أن يكون وقت المقابلة محدودًا قدر الإمكان، فهو لا يستطيع الجلوس على مقعده طويلًا.

وعندما شرعت في توجيه أسئلتي إليه عبر بعض الوريقات التي أحملها بين يديَّ قال لي: لا تقرأ من ورق لأنك إن قرأت من ورق أطفأت الجذوة التي فيك. نحن في الجامعة لا نقرأ من ورق لذلك نكون أكثر تلقائية وأكثر حضورًا. فوعدته بالتخلي عن التراتبية والنمذجة التي حملتها الأسئلة المكتوبة وبدأنا حديثنا.. وهنا نص الحوار:

■ ثمة أسئلة لا نهائية يطرحها حوار مع مفكر كبير مثلك؛ وهَبَ مشروعه للإجابة عن أسئلة عصية، لكن دعنا نبدأ من سؤال جوهري طرحتَه في مقدمة كتابك «من النقل إلى العقل»: هل يمكن أن تنجح عقلانية عربية مستمدة من العقلانية الغربية أو الرياضية ومقلدة لها بينما العقلية العربية مغروزة في العلوم النقلية»؟

– القدماء صنفوا العلوم إلى ثلاثة أنواع. علوم عقلية خالصة لا دخل فيها للنقل مثل الرياضيات، والصيدلة، والفلك، وعلوم الحيوان والنبات، وهي علوم لا تخضع للبرهان. هذه العلوم هي التي تُرجمت إلى اللاتينية وأثرت تأثيرًا بالغًا في العلوم الأوربية الحديثة. وللأسف نحن انقطعنا عن هذا التيار. ولو ذهبت إلى قرطبة ووقفت في ميدان الغافقي وسألت: من الغافقي هذا؟ لعرفت أنه واضع علم البصريات وهو الذي حلل العين واكتشف مجالات الرؤية. وهناك علوم نقلية خالصة لا دخل فيها للعقل وهي للأسف العلوم التي تسيطر على الأزهر وأحيانًا على دار العلوم وأقسام اللغة العربية وهي خمسة: القرآن والحديث والتفسير والفقه وعلوم التصوف. وعلوم تجمع بين العقل والنقل وهي أربعة: علم الكلام أي أصول الدين، علم الفلسفة أي علوم الحكمة، وعلم أصول الفقه، ثم علوم التصوف.

■ لكن مؤسساتنا العلمية وجامعاتنا لم تكن في أي لحظة عند هذا الوعي. كيف تفسر ذلك؟

– تفسير هذا أننا أكثرنا في جامعاتنا من تدريس العلوم النقلية؛ لكن أين العلوم العقلية؟ لماذا نخشى من تناول العلوم النقلية ونتركها في أفواه الخطباء والدعاة وكل من يريد أن يتاجر بـ«قال الله وقال الرسول». لقد وضعت كتابي «من النقل إلى العقل» لكي أحاول أن أعيد بناء هذه العلوم الخمسة ليس باعتبارها علومًا عقلية خالصة ولكن على الأقل باعتبارها علومًا تجمع بين العقل والنقل. صحيح أن القدماء تكلموا فيها ولكن ما يهمني أنا ليس الوحي وجبريل وكيف نزل على الرسول. ما يهمني فيها هو أسباب النزول. فالوحي لم ينزل إلا بناءً على سبب. «ويسألونك عن الأنفال» أي في كيفية توزيع الغنائم فتنزل الآية لتنظيم الأمر. الأشياء العامة هي التي سأل عنها الناس وقتها، أما الأشياء التي لا يستطيع الإنسان أن يصل إليها مثل: «ويسألونك عن الروح» فهذه تمثل القيمة الإيمانية، لذلك ليس من الملائم الإفراط في الأسئلة حولها. لكن هذا للأسف ما يحدث الآن. نسأل عن كل شيء غيبي عن عذاب القبر وعن الروح وعن كل شيء ونختلف ونكفر ونخرج عن الدين، في الوقت الذي يجب أن تكون أسئلتنا عن الأشياء التي تهمنا.. الفقر والاستبداد والاحتلال والغش والنهب والسلب وغلاء الأسعار وتفتيت الأمة والحروب الأهلية بين أعراقها. هذا هو التحدي.

■ ولكن المناخات المحيطة بالعقل العربي بطبيعته التلقينية تُعزِّز فكرة التشدد كما أشرت. فكيف لنا أن نتجاوز ذلك؟

– في علوم القرآن شيء مهم يتجاهله الوعاظ والدعاة هو الناسخ والمنسوخ، ويعني أن القرآن تدرَّج في أحكامه طبقًا للزمان حتى يراعي قدرة الناس على تنفيذ نواهيه. وأشهر مثال على ذلك تحريم الخمر كما يعلم الجميع. فقال في البداية: لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى. ثم قال: فيهما إثم كبير ومنافع للناس، إلى أن وصل إلى وصفها بأنها رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه. إذن هناك أحكام، ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها. ونحن الآن نريد أن نطبق كل شيء في اللحظة ونعد الناس بالمستقبل ولا نحقق شيئًا. فهل معقول غلاء الأسعار بحيث يضرب السعر في أربعة أضعاف؟ هل هذا تقدير منطقي في الحفاظ على موارد الدولة؟

تقديس الشخصي

■ ثمة رغبة قديمة في تقديس ما هو شخصي في التاريخ

الإسلامي على حساب الانتصار للتاريخ الموضوعي. وربما يكون علما الحديث والتفسير يمثلان دليلا على هذا الالتباس. هل ترى ذلك؟

– أما علم الحديث فقد أبدع العلماء في دراسة السند من المقطوع والمُرْسَل والرواية، لكن المتن نفسه لم ينقده أحد. حتى إن بعضًا قال قد يكون السند صحيحًا والمتن غير صحيح، وقد يكون المتن صحيحًا والسند غير صحيح. أليس علينا أن نقول شيئًا في المتن والسند؟ ولو أخذت تطور الرواية في علم الحديث لوجدت تغليبًا لحديث الرسول على شخصه، وكذلك السيرة. لكن مشكلتنا الآن أننا نغلب شخص الرسول على حديثه، بمعنى أدق نقدم الشخصي على الموضوعي. وأصبحنا نطلق استغاثات غير مفهومة مثل: أغثنا يا رسول الله، حبيبي يا رسول الله. وأخيرًا فيما يتعلق بعلوم التفسير فهي حتى الآن تمثل إشكالية. انظر إلى الطبري وابن كثير وسيد قطب وتفسيراتهم من الفاتحة إلى الناس، وانظر كيف تتكرر الموضوعات نفسها. هذا ما دفعني لعمل تفسير موضوعي للقرآن، وهو تفسير يقوم على تجميع الآيات التي تدور حول موضوع واحد. الظلم، العدل، الحرية، حتى نعرف رأي الإسلام في أيديولوجيات العصر. وقد طبعت هذا الكتاب على نفقتي؛ لأن الناشرين معظمهم يأخذون الكتاب ولا يعودون إليك. يجعلونك تدفع قيمة الورق ويعدونك بردّ ما دفعتَ ولا يرجعون، فقلت: إذن لماذا لا أطبع الكتاب على نفقتي. ولكنني لا أدري ما أفعل في التوزيع.

■ ولماذا لم تطبعه في إحدى هيئات الدولة؟

– هيئة الكتاب طبعت الأجزاء الأول والثاني والثالث من كتاب «من النقل إلى العقل» بعد ست سنوات مع أنني تنازلت للهيئة عن جميع حقوقي في سبيل أن يخرج هذا الكتاب جزءًا كل عام. في بيروت طبعوا الجزء الأول فقط، ومكتبة مدبولي طبعت ثلاثة الأجزاء ثم توقفت.

■ أشرتَ في كتابك «الدين والثقافة والسياسة» إلى ما يسمى ما بعد الأصولية. وكنتَ تقصد بهذا المصطلح اليسار الإسلامي أو الإسلام المستنير، واتهمت الغرب بالوقوف فحسب أمام ظاهرة الأصولية وغض الطرف عن التعامل مع ما بعدياتها. هل تعتقد أن هذا الموقف له علاقة برغبة غربية في نمذجة العنف ليكون جزءًا من ذرائعية التدخل بأشكال شتى، ولتكريس صورة الآخر العنيف والهمجي التي يقتات عليها وبها؟

– الغرب ما زال ضحية بعض الصور النمطية المؤثرة فيه مثل ربط الإسلام بالتخلف والإرهاب واللاعقلانية، إلخ. فإذا حاول أحد أن يبين حقيقة المرأة في الإسلام، التنمية والتقدم في الإسلام وأعطى أسئلة من التاريخ انزعج الغرب من هؤلاء المفكرين الجدد الذين يحاولون تجاوز الصور النمطية التي اعتادوا عليها منذ أيام الاستشراق والاستعمار إلى آخره، وبالتالي أنا أحزن عندما أرى في وسائل الإعلام المصرية أن الرجل يضرب المرأة. نحن نعطي من يريد تشويهنا المادة التي يشوهنا بها ومن ثم فإن أهمية اليسار الإسلامي هو الخطاب الثالث. فقد واجهت الخطاب السلفي الذي يعرف كيف يأخذ ولكنه لا يعرف ماذا يأخذ. فهو يدعونني إلى الأخذ بالأحكام كافة الحدود ومنع الاختلاط وكذا. ثم يتحدث أيضًا عن الحرية والديمقراطية والتنمية والعدالة الاجتماعية لكنه لا يعرف كيف الوصول إليها في الواقع، فهو مرة يسميها اشتراكية ومرة يسميها قومية ومرة ليبرالية. أنا أريد أن أعطي خطابًا ثالثًا يعرف كيف يقول، أي يستعمل لغة التراث الإسلامي الذي تحول إلى ثقافة شعبية وماذا يقول ليتحدث عن مصالح الناس. فما زال يؤثر فينا ما حدث للمصري الذي ضربه ابن عمرو بن العاص عندما قال له عمر: لماذا استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟ هذه هي الليبرالية. عرابي وقف أمام الخديو توفيق في قصر عابدين وقال له قولته الشهيرة التي صارت مثلاً: «إن الله خلقنا أحرارًا ولم يخلقنا تراثا أو عقارًا، فوالله لن نستعبد ولن نورث بعد اليوم». لقد أخذ الرجل مطالب الناس وعبَّر عن رغبتهم في انتزاع الحرية. الأفغاني يقول مثلا: عجبت لك أيها الفلاح، كيف تشق الأرض بفأسك ولا تشق بها قلب ظالميك. حتى القرآن يصف أخوين أحدهما عنده ٩٩ نعجة والثاني له واحدة. الأول يريد الاستيلاء على نعجة أخيه. الأول لديه كل شيء والثاني ليس لديه شيء. إن أغنى أغنياء العالم من أمتنا وأفقر فقراء العالم من أمتنا أيضًا. هذا ما جعل اليسار الإسلامي يخاطب قلوب الناس.

■ مشروعكم في مجمله يقوم على استعادة نوع ما من الإسلام شأن مفكري اليسار الإسلامي. بالطبع ثمة أهمية لثورة فقهية كاملة كما ترون، لكن النتيجة في النهاية تتحصل فيما انتهى إليه محمد أركون من ضرورة العودة إلى ما أسماه إسلام الصفاء الأول. ألا ترى أن ثمة خطرًا من وصول مشروع الإسلام السياسي إلى الحكم؟

– الخطورة موجودة إذا ما دخل هذا المشروع إلى الحكم. التجربة الغربية نجحت؛ لماذا؟ مارتن لوثر حاول، وجاء هيغل وحوَّل العقيدة المسيحية إلى فكر. التثليث ليس الأب والابن والروح القدس لكنه الجدل بين الموضوع ونقيضه ومركبه، وهذا الجدل في التاريخ والأسرة. كنت أشرح للطلبة هذا الكلام فيقولون: إنهم لا يفهمون منه شيئًا، أقول لهم. مش فاهم التثليث؟ لكنك تفهم تثليث: «أنا والعذاب وهواك» هذه هي الهوية والواقع والآخر. ثم جاء الهيغليون الشبان وتساءلوا: ما الذي سنعمل بهذا الفكر وكيف نوظفه؟ لا بد من تركيبه على الإنسان والحرية وعلى الوعي إلخ، وكونوا تيارًا اسمه اليسار الهيغلي، ثم أتى ماركس وقال: ما الذي أفعل بالإنسان والوجود الذاتي والوعي؟ أين المجتمع والصراع، من هنا قدم نقدًا لنقد النقد أو يسار اليسار.

■ ولماذا لم يتحول الفكر عندنا إلى تطبيق يمس حياة الناس؟

– عيبنا أننا نريد الانتقال من الدين إلى الثورة من دون تحويل الدين إلى فكر، ثم ننقل الفكر إلى الواقع. وهذا ما حدث مع الطهطاوي والأفغاني ومحمد عبده، ومع دعاة التيار العلمي مثل فرح أنطون وشبلي شميل وإسماعيل مظهر الذي قضى حياته يدافع عن دارون. نحن نريد أن نقفز على المراحل، لكن هذا يمثل السبب الرئيس في أننا كلما ننهض نقع ثم نقوم فنقع، سواء من يقوم بذلك الشعب أو النخبة العسكرية.

■ هل تعني أن النخبة الثقافية هي فقط التي لم تُجرب؟

– نحن لم نجرب حتى الآن النخبة الثقافية، كما حدث في الثورة الفرنسية. لكن يظل الخوف أن تقع النخبة الثقافية في أخطاء جسيمة بسبب تملقها للجماهير أو رجال الدين.

■ السؤال الذي يبدو تاريخيًّا ويردده مفكرون كثيرون هو: لماذا تخلف العرب وتقدم الآخرون. هل الإسلام السياسي هو السبب؟

– هذا خلط بين المراحل. لو كان هناك مفكر غربي يعيش في عصر ابن خلدون لسأل السؤال نفسه معكوسًا: لماذا تقدم العرب وتخلف غيرهم. إنها مراحل. ففي المراحل الأولى أبدعنا علمًا وثقافة وحضارة بعد أن تعلمنا من اليونان والرومان والفرس والهند وترجم الغرب عنا، ذلك في أوائل العصر الوسيط في القرن العاشر والحادي عشر وظهرت الرشدية اللاتينية. في الغرب تحكم العقل في العقائد وكنا سبب النهضة الأوربية بما في ذلك الإصلاح الديني عند مارتن لوثر، الذي كان معجبًا بالإسلام وتعلم العربية لكي يقرأ القرآن. إذن الذي يقول: لماذا تأخر العرب وتقدم غيرهم؟ يتكلم عن المرحلة الحالية، لماذا تخلفنا بعد أن تقدمنا وتقدم غيرنا بعد أن تخلفنا.

السؤال الأهم: لماذا تأخر الإبداع الفكري العربي رغم صلتنا بالغرب منذ أكثر من ٢٠٠ سنة منذ الشيخ حسن العطار والطهطاوي، وما زال أكبر حدث لدينا هو مشروع الألف كتاب الأولى والثانية ثم تأسيس المركز القومي للترجمة في القاهرة وبيروت والمقصود هنا الإبداع الفكري لا أتكلم عن الإبداع الأدبي. حتى المشاريع العربية المعاصرة البعض يقول: إنها ما زالت صدًى سواء ما يتعلق بالمنهج البنيوي عند الجابري أو الماركسي عند الطيب تزيني أو المنهج الظاهرياتي الفينومنولجي عندي أو البنيوي عند أدونيس في الثابت والمتحول. وتظل القضية هي اعتقادنا أننا بالترجمة يمكننا أن نلحق. والغرب يقول: مهما ترجمتم، فإن إيقاع الفكر عندنا أسرع بكثير، ومن ثم فالمسافة تتسع. إذن الدرس الذي نأخذه من القدماء أنه حدثت ترجمة للفلسفة اليونانية في القرن الثاني، وفي القرن الثالث ظهر الكِندي، وبعد ذلك بدأ الفلاسفة يشرحون ويكتبون ويؤلفون من دون الإشارة إلى أرسطو أو غيره. فلماذا تأخر الفكر العربي رغم أننا ما زلنا نترجم. هل عدم الثقة بالنفس، هل الإحساس بالدونية أمام الغرب؟ تخلينا عن الاجتهاد وذهبنا إلى التقليد. هل الصين نقلت عن أحد عندما أبدعت كونفشيوس؟ هل الهند نقلت عن أحد؟

عن مجلة‌ى الفيصل

حنفي.. فيلسوف تجديد التراث

د. السيد ولد أباه

من غريب الاتفاق أني تلقيت خبر وفاة المفكر المصري البارز الصديق حسن حنفي مع زملائي من كتاب جريدة «الاتحاد» ونحن نختم منتدانا السنوي في أبوظبي، الذي نادراً ما كان الراحل يغيب عنه، رغم استفحال مرضه في السنوات الأخيرة.

وكنت قد قرأت مبكراً كتابات حسن حنفي الفلسفية، ومن بينها ترجمته المتميزة لكتاب سبينوزا الشهير «رسالة في اللاهوت والسياسة»، بالإضافة إلى عدد من الدراسات الأخرى في الفلسفة الإسلامية والغربية منشورة في كتابه «دراسات فلسفية». وعندما صدر في عام ١٩٨٠ كتابُه «التراث والتجديد» الذي هو مقدمة مشروعه الفكري الواسع، تلقفتُ الكتاب بحماس، قبل أن ألتقي بالرجل في تونس في نهاية الثمانينيات، ثم تتكررت لقاءاتنا كثيراً، سواء في سياق المؤتمرات الفلسفية المتخصصة أو الندوات الفكرية العامة.

وإذا كان أصحاب المشاريع التراثية من المفكرين العرب انطلقوا في الغالب، إما من المباحث الإبستمولوجية أو تاريخ الأفكار، فإن حسن حنفي تميز بتجذره في المنظور الفلسفي.

ومع أنه كان شديد الوعي بأهمية الأيديولوجيا في توجيه وعي الناس ودفع تطلعاتهم العملية، إلا أن مرجعيته الأساسية انطلقت من تأويلية النص الديني بالرجوع إلى سبينوزا والانفتاح على الفلسفات التأويلية المعاصرة، بما فيها جوانبها اللاهوتية (ومن هنا اهتمامه بلاهوت الثورة الكاثوليكي في أميركا اللاتينية)، بالإضافة إلى المقاييس الفينومنولوجية التي كان الاهتمام بها ضعيفاً في الحقل الأكاديمي العربي.

ومن اطلع على أطروحته الرائدة للدكتوراه بالفرنسية في الستينيات حول تأويلية أصول الفقه من منظور فينومنولوجي، أدرك اعتناءه المبكر بهذا المنحى المنهجي الصعب.

والواقع أن مشروعه الفكري استند في العمق إلى هذا المسلك التأويلي، رغم حرصه على تبسيط أدواته النظرية، واستخدام القنوات الصحفية العامة لنشره بين الناس.

إن الفكرة المحورية التي انطلق منها حسن حنفي هي أن تجديد التراث لا يمكن أن يتحقق بمنطق الانفصال عنه، سواء بمعنى القطيعة الإبستمولوجية (محمد عابد الجابري) أو بمعنى التجاوز التاريخي (طيب تزيني وحسين مروة)، وإنما يتحقق من خلال إعادة بنائه في الوعي الجماعي.

لقد ظل حنفي في هذا التوجه وفياً لدرس سبينوزا الذي صاغ مشروعه الحداثي بلغة ميتافيزيقية كلاسيكية رغم سمته التنويرية الراديكالية، كما كان وفياً للمناهج التأويلية المعاصرة في رفضها لفكرة تمديد الموضوعية العقلانية إلى المباحث الإنسانية التي تتحدد أساساً حسب معايير الاعتقاد والقناعة والتقليد. ولهذا الغرض وضع منهجه الثلاثي الذي طبّقه لاحقاً في مشروعه الكثيف: بناء الموقف من التراث، وتحديد العلاقة بالآخر (ويعني هنا أساساً الفكر الغربي)، ومعالجة إشكالات الواقع العملية.

ولا شك أن إسهام حسن حنفي الكبير في الفكر العربي المعاصر يكمن في الجبهة الأولى، أي ما دعاه بإعادة بناء علوم التراث والنص، سواء تعلق الأمر بعلم الكلام وأصول الدين (من العقيدة إلى الثورة: خمسة مجلدات) أو بالفلسفة (من النقل إلى الإبداع: ثلاثة مجلدات) أو أصول الفقه (من النص إلى الواقع: مجلدان)، بالإضافة إلى أعمال مشابهة في علوم التصوف والسيرة والتفسير.

أما الجبهة الثانية فقد استأثرت بالعديد من أعماله الأكاديمية، وقد حاول تنزيلها في علم جديد وضع مقدماته أطلق عليه «علم الاستغراب» كرد على مباحث الاستشراق الغربي، وقد أراد فيه تحجيم الغرب ووضعه في سياقه النظري والتاريخي المحدود، مستلهماً أطروحة هوسرل في «أزمة الوعي الأوروبي». إلا أن هذا الكتاب تعرض لنقد جذري قد يكون هو سبب إحجام حنفي عن الاستمرار في تطوير هذا العلم الذي حاول تأسيسه.

في الجبهة الثالثة، كتب حسن حنفي كثيراً في موضوعات وقضايا الساعة، وحاور مطولاً كل أقرانه من المفكرين والفلاسفة العرب، واشتهر في هذا الباب حواره الطريف مع المفكر المغربي محمد عابد الجابري الذي نشر في كتاب جامع بعنوان «حوار المشرق والمغرب».

في سنة ١٩٩٤ استضافني حنفي في قسم الفلسفة بجامعة القاهرة لإلقاء محاضرة حول الاتجاهات الجديدة في الفلسفة الفرنسية، وقد قال لي أو انها أنه يطلب من الله أن يمد في عمره حتى يصل الثمانين لأنه يحتاج لهذه السنين من أجل إكمال مشروعه الفكري. وعندما قابلتُه قبل ثلاث سنوات في أبوظبي، وكان شديد الوهن والمرض، قال لي إنه الآن مستعد للموت بعد أن استكمل المحطات الكبرى في مخططه الذي أعلن عنه في كتابه الافتتاحي «التراث والتجديد»، وكان أو انها قد فرغ لتوه من كتابة مذكراته التي هي آخر إنتاجه.

رحم الله حسن حنفي، كان نسيجاً وحده في سعة ثقافته وعمق انتمائه وصدق انفتاحه الفكري وغزارة إنتاجه العلمي.

عن صحيفة الاتحاد

حسن حنفي .. أنسنة الدين

"لقد منحني الله الصفاء لقبول الاشـياء التي لا أستطيع تغييرها ، والشجاعة لتغيير الأشياء التي أستطيع تغيرها ، والحكمة لمعرفة الفرق"

رينولد نيبوز

علي حسين

أنهى الموت رحلة حسن حنفي قبل أن ينتهي من مراجعة جديدة لأحد أكبر العقول الفلسفية ، وأفضلها « فريدريك هيغـل « . كان يأمل ان يختتم رحلتـه الفكرية بكتاب عن الفيلسـوف الالمـاني الشهـير الـذي تعرض لسـوء فهم حسب قول حنفـي ، حتى نشأت صورة له مختلفة تماما عـن هيغل الحقيقي الذي عاش وكّـون فلسفته من خلال تجاربه الشخصيـة والظروف العامة لعصره. في كتابه ذكريـات « وكان آخـر مؤلفاته يكتب حسـن حنفي :» لم يَبـق لي إلا هيغل لبيـان أهمية هذه الفترة مـن الفلسفة الغربيـة، فقد استطاع هيغـل أن يُحوِّل الديـن إلى فكر، والعقائد إلى حياة « .

حسـن حنفـي الذي رحـل عن عالمنـا قبل ايـام قليلة ، لم تكـن رغباته تقتصـر على الكتابة والقـراءة ، بل السعي لجعـل الديـن يكتسـب افضـل مظهر ممكـن في مجتمع يعكس خيارات الناس واختلافاتهـم الطبقية والثقافية . وقـد استندت افـكاره الفلسفية الى مرتكـزات ثالوثية : (الـتراث ،والارث الغربي،والواقـع). فعلينـا ان نعيد فهـم التراث بمـا يناسب ضـرورات الواقـع وحاجاته ، ونتعامـل مـع الارث الغربـي تعاملا نقديـا لا مجرد نقل وترجمـة ، وإنمـا إعـادة انتاجـه وإرجاعـه الى أصوله ، كل هـذا يتم باطـار نظرية للواقع . يشـرح لنا صاحب كتـاب « الاستغراب « كيف أن الفكر عندنا لم يتحول الى تطبيـق يمس حياة الناس : « عيبنا اننـا نريد الانتقال مـن الدين الى الثـورة من دون تحـويل الديـن الى فكر ، ثـم ننقل الفكـر الى الواقع « ، يكتب محمـود أمين العالم : ان حسـن حنفي لا يقف عند تجديد التراث بل يسعى « بجرأة وتَفتح واستنارة الى تجديد العقيدة نفسها ، فهو يحول علـم الله الى علم الانسان « – محمود امين العالم مواقف نقدية من التراث – ولعل المشروع الأبرز لحسن حنفي هو ان ينقل التراث الى الانسان ، بمعنى ان يكون الانسـان محور قراءة الـتراث ، فهو يسعـى للجمع بين التراث والتغيير الثوري الاجتماعي ، هاجسه الاساسي هـو الانسـان الفاعل الحـر المتجـدد ، ولهـذا اطلق على مشروعه الفلسفي اسم « التراث والتجديد « .

يتذكر حسن حنفي كيف ساعده سبينوزا على ذلك عندما عـثر عليه اثنـاء دراسته في باريس عـام ١٩٥٦ : « كنت أقـرأ كتـاب رسالـة في اللاهـوت والسياسـة وأرتعش فرحـا ، فهذا الكتـاب ينتقل بي بين نقـد التخلف الى نقد السياسـة والخوف والمعجزات ونقـد الاستبداد « وبعد عودتـه الى مصـر وتعينـه أستـاذا في الجامعـة ، كانت أول جملـة كتبهـا علـى السبـورة لطلبـة الفلسفـة هـي عنـوان كتاب سبينوزا « رسالـة في اللاهوت والسياسة « ، فقـد كشف له الفيلسوف الهولندي الذي عاش مطاردا بسبـب آرائـه الصادمة حول الديـن والخرافات ، من ان حريـة الفكر ليست خطرا علـى الايمان ، ولا على سلامة الدولة ، بل ان القضاء على حرية الفكر يشكل خطرا على الايمـان والدولة .وعندما يقرر ان يترجم كتاب « رسالة في اللاهـوت والسياسة « يُصدر الكتاب بهذا الاهداء : « إلى مـن ينظـرون إلى الكتب المقدسة نظـرة علمية « . لم تكن ترجمة سبينوزا عند حسن حنفي محاولة للتعريف بفيلسوف مارس تاثيرا كبيرا على تاريخ الفكر البشري ، وانمـا كان الهـدف منها هـو استخدام افكار سبينوزا للتنبيـه مـن خطـر الاستبـداد ، وعندما تعرض لحملة بسبـب ترجمة رسالـة في اللاهـوت والسياسة باعتبار ان سبينـوزا كافـر ، يكتب :» انا اشـرح سبنوزا وكانط كنـوع من الحماية للمجتمـع « – حسن حنفي مقدمة في علـم الاستغـراب – . يتعلم من سبينـوزا ان الغرض من إقامة نظـام سياسي ليس السيـادة أو القهر أو إخضاع الشعب ، بل التحرر من الخوف : « أي إن غرَض التنظيم في المجتمـع هو الحرية « – مقدمـة رسالة في اللاهوت والسياسة – .

تتسـم أعمال حسن حنفي في مجـال التأليف والترجمة والتـي تجـاوزت الـ« مئـة كتـاب « بانها تُعلي مـن شأن الانسان ، وفي جميع هذه الكتب كان الراحل يسعى لأن يكون الانسان موضوع الفلسفة .

الصبـي المولـود في الثالـث والعشريـن مـن شباط عام ١٩٣٥ ، في واحـد مـن اقـدم واعـرق احيـاء القاهـرة الشعبيـة « حـي الشعرية « لعائلة مـن الطبقة المتوسطة ، الوالـد يعمـل عازفا لألـة الترمبـون ، وكان يأخذ ابنه ليتفـرج على عـالم الموسيقيين ، لكن الصبـي الذي أغرم بأيـام طـه حسـين وكتابات العقـاد ، خطـط لأن يصبح رساما ، درس فن البورتريت ورسم عدد من الموسيقيين مثـل بتهوفـن وشوبان الى جانب أحمـد شوقي وحافظ إبراهيـم ، مع مـرور الوقت يكتشـف ان الوقت الطويل الـذي يقضيه في الجلوس على منضدة الرسم ، عليه ان يخصصه للقراءة وكتابة قصائد لم يسمح لأحد بقراءتها .في الجامعـة وهـو يدرس الفلسفـة وجد نفسـه وجهاً لوجـه أمام معلم مـن طراز خاص ، أسمـه عثمان امين ، أستـاذ فلسفة يعشق ديكارت وينتقـد الفلسفة الوضعية التي كان ينادي بها زكي نجيب محمود ويدافع عن كانط وهيغـل ومن خلالـه يدرك اهميـة الاختـلاف في الرأي وتبادل وجهات النظر، وكان قد تعرف قبل الجامعة على « عثمـان امـين « من خلال كتاباته التـي كان ينشرها في مجلة الثقافـة وخصوصا المقالات التي نشرت عن جمال الديـن الافغاني الـذي شغف به حسن حنفـي وبكتاباته عـن تحرير الامة الاسلاميـة ، وستظل في ذاكرته عبارة الافغـاني الشهيرة « القوة هـي دعامة الحق ، لا خير في حق لا تدعمه قوة « . بعد عودته من باريس ينشر مقالات عـن الافغاني يؤكـد فيهـا ان « تحرير الارض لا يتم إلا بالكفـاح المسلح وهذا مـا اثبته التاريخ « – حسن حنفي «الافغاني باعث النهضة الفكرية «– .

ستشغلـه قضية التحرر مـن الاستعمار ليجد في دراسة نشرهـا استـاذه عثمـان أمـين عـن الفيلسـوف الالماني يوهـان فيشتـه الدافـع للعمـل السياسـي فينضـم الى حركـة الاخوان المسلمين ، لكن سرعـان ما سيتركها بعد ان هاجـم الاخوان ثورة مصدق عـام ١٩٥٣ ، ووصفوه بأنـه شيوعي، وأيـدوا الشاه، ، عندهـا وصف توجههم باليمينـي، :» لان الإسلام مع التأميم وضد حكم الملوك، وأن الأفضـل جعل الشعار كتابـا وقلمَين وليس مصحفًا وسيفَـين- بقصد شعار الاخـوان المسلمين – فالمصحف والسيفان دعـوة للقتال، والكتاب والقلمـان دعوةٌ للعلم « – ذكرياتي – .

بعـد ذلـك يتذكـر فيشتـه فيخصص لـه كتابـا بعنوان « فيشتـه فيلسـوف المقاومـة « اعتبره الفيلسـوف الامثل لـه « مازالـت عباراتـه تصـارع في نفسي (الأنـا تصنع

نفسها) « وهو يعترف ان فيشته غير حياته « لا يوجد مفكر اتصل بفشته إلا وغير حياته « . وسيكتب التلميذ حسن حنفي ، أولى مقالاته يشيد فيها باستاذه عثمان امين الذي يناقش كل شيء، ولا يفوته شيء، ويغريه أن يعيد صياغة المفاهيم الفلسفية والفكرية ، لتنشأ علاقة بين الأستاذ والتلميذ ، وفي قاعة الدرس يشرح الاستاذ كيف يمكن تطبيق نظريات ديكارت على الواقع العربي المعاصر، لكنه سيختلف معه حول أفكار محمد عبده ، الذي كان عثمان أمين يضعه في مكانة متميزة ، فيما كان التلميذ يرى يوجه النقد لـ«محمد عبده « لانه يعتبر أن العقل في حاجة إلى وصيٍّ ، وذات يوم يكتب الطالب حسن حنفي على السبورة «أحِب محمد عبده ولكن حُبي للحق أعظم .»

في الجامعة سيثير اهتمامه زكريا ابراهيم مدرس الفلسفة العائد من باريس وفي جعبته الظاهراتية والفلسفة الوجودية. وكان يقول لطلبته ان الفلسفة توقفت عند أدموند هوسرل وهو الذي وضع اسس الظاهريات ، والذي ستمارس فلسفته فيما بعد تاثيرا كبيرا على افكار حسن حنفي .

تتسم معظم أعمال حسن حنفي بالنبرة التحليلة التي تطرح اسئلة حول الأزمات التي تعاني منها مجتمعاتنا ، حيث تأتي مناقشة الواقع في صدارة اهتمامات حنفي ، ليس فقط لأنها تعكس حقيقة المنهج الذي اختطه لنفسه ، بل لأنه شاهد على نمط التخريب الذي تتعرض له الثقافة الحقيقية .وفي تصديه لمشكل الفكر والحرية يحاول أن يصبح إمتدادا لفلاسفة التنوير ، فينشر أول كتبه عام ١٩٧٦ « قضايا معاصرة» ، الجزء الاول منه بعنوان « في الفكر العربي المعاصر» ، وفي هذا الكتاب الذي تناول عددا من القضايا التي تهم واقع الثقافة العربية المعاصرة ، يلجأ حسن حنفي الى هوسرل وفلسفته الظاهراتية ، حيث يقوم بتحليل الظواهر الاجتماعية « لاقامة نوع من الظاهراتية الاجتماعية الهدف منها تجاوز المناهج الاكاديمية النظرية او التطبيقية من اجل اتصال مباشر بالفكر ورؤية مباشرة للواقع « – قضايا معاصرة الجزء الاول – ، وفي عام ١٩٧٧ يصدر الجزء الثاني من « قضايا معاصرة « بعنوان « في الفكر الغربي المعاصر « ويحتوي على دراسات عن أشهر فلاسفة الغرب ممن ساهموا في تحديث مجتمعاتهم ، وفي هذا الكتاب يحاول ان يطبق منهجه في « الاستغراب « حيث يعيد كتابة الفكر الفلسفي الغربي من منظور شرقي يريد من خلاله التعبير عن الوضع الراهن للفكر العربي المعاصر ، وهكذا نجد ان الجزء الاول يعبر عن وضع « الأنا « والجزء الثاني يعبر عن وضع « الغير « وكلاهما يسلطان الضوء على عدد من القضايا الحيوية التي تهم المثقف العربي والتراث ، وهو الموضوع الذي لم يكف حسن حنفي يوما منذ عودته من فرنسا في منتصف الستينيات بعد حصوله على درجة الدكتوراه في الفلسفة بالدعوة الى دراسته بكل ما يملك من حماسة وإيمان ، وبكل ما يتاح له من وسائل النشر ، كتب ، صحف ، مجلات ، وسينصب جهد حسن حنفي على تتبع موضوعة التجديد في التراث العربي ، فهو يرى ان التراث ليس مخزونا ماديا يظهر في كم هائل من المخطوطات القديمة وحوادث التاريخ ، وانما هو بالاساس مخزون نفسي لدى الجماهير يمارس تاثيرا مباشرا على حياتها وكثيرا ما يقف عقبة في في وجه محاولات الاصلاح :» لما كان التراث إذن ليس مخزونا ماديًا في المكتبات، وليس كيانا نظريا مستقلا بذاته، فالأول وجود على المستوى المادي، والثاني وجود على المستوى الصوري، فإن التراث في الحقيقة مخزون نفسي عند الجماهير. فالتراث القديم ليس قضية دراسة للماضي العتيق، فحسب، الذي ولى وطواه النسيان، ولا يزار إلا في المتاحف، ولا ينقب عنه إلا علماء الآثار، بل هو أيضا جزء من الواقع ومكوناته النفسية، ما زال التراث القديم بأفكاره وتصوراته ومُثله موجها لسلوك الجماهير في حياتها اليومية إما بعاطفة التقديس في عصر لا يسلك الإنسان فيه إلا مداحا، أو بالارتكان إلى ماضٍ زاهر تجد فيه الجماهير عزاء عن واقعها المضنى»" – حسن حنفي التراث والتجديد –

في السوربون يقرر ان تكون رسالته الاولى للدكتوراه بعنوان « المنهج الإسلامي العام» والتي أعجب بها المستشرق ماسينيون ، والرسالة الثانية بعنوان « من تأويل الظاهريات إلى ظاهريات التأويل» التي أهداها الى أستاذه بول ريكور الذي سيتعلم منه أن الفلسفة إذا

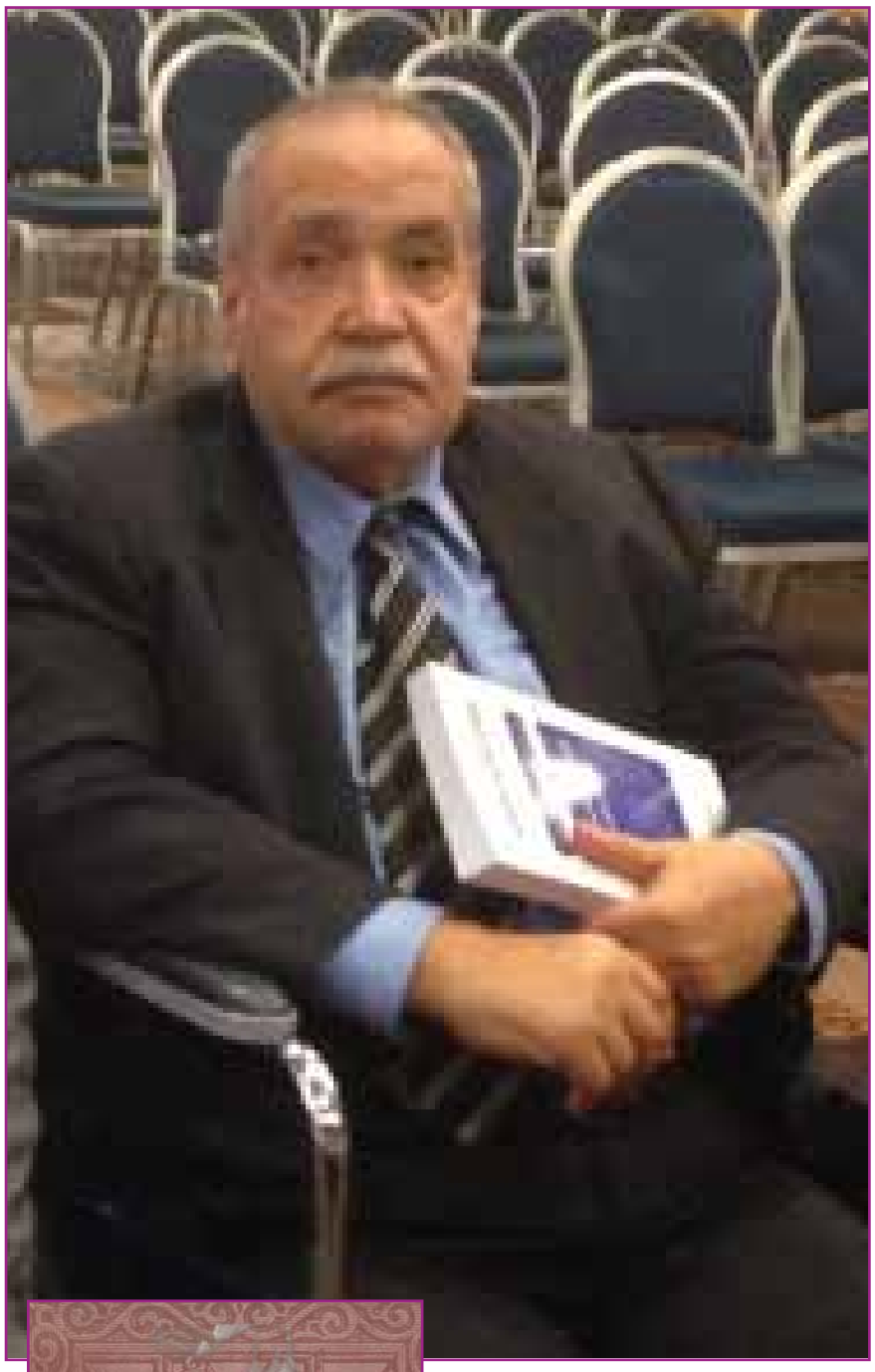

أريد لها أن تكون معرفة منظمة فينبغي عليها ان تسعى الى تجديد الموروثات القديمة للعصور القديمة، لأنه لا يمكن للمرء أن يكون له «مستقبل» إذا لم يكن له «ماض». لا يمكننا أن نأمل إذا لم يكن لدينا ذاكرة. ولكن يجب علينا إعادة تشكيل ذاكرة لا تكون تكرارية بل ذاكرة إبداعية. هذا هو أحد أهداف الفلسفة كما شرحها له بول ريكور ، وهو ما دفع حسن حنفي فيما بعد في معظم مؤلفاته واختياراته المترجمة، أن يتعامل مع الفلسفة على انها ليست مجرد تجميع لآراء ، أو رواية لأفكار معزولة ، وإنما مساهمة جادة وفاعلة في تغيير المجتمع ... عندما قدم رسالته « من تأويل الظاهريات إلى ظاهريات التأويل» الى لجنة المناقشة قال عنها فيلسوف ومؤرخ للفلسفة الفرنسية اتين جيلسون «هذه أول مرة أرى فيها أحدا يدرس وحي إبراهيم بطريقة جان بول سارتر، يدرس القديم بلغة الجديد « .

يتعلم من هوسرل مثلما تعلم من سبينوزا وكانط وهيغل وفيورباخ وماركس ولسنج وتوما الاكويني ، إن كل مذهب من مذاهب الفلسفة يكشف عن جانب من جوانب الحقيقة . كان في الجامعة قد تعرف على فلسفة هوسرل من خلال استاذه زكريا ابراهيم الذي نشر في نهاية الخمسينيات سلسلة من المقالات عن الفلسفة الظاهراتية وهي الفلسفة التي لم تجد لها رواجا كبيرا في الثقافة العربية ، ولم تكن معروفة إلا في نطاق محدود ، حيث ترجم تيسير شيخ الارض نهاية الخمسينيات كتاب هوسرل « المدخل الى الفينومينولوجيا « ، وقد ايقن حسن حنفي وهو يقرأ

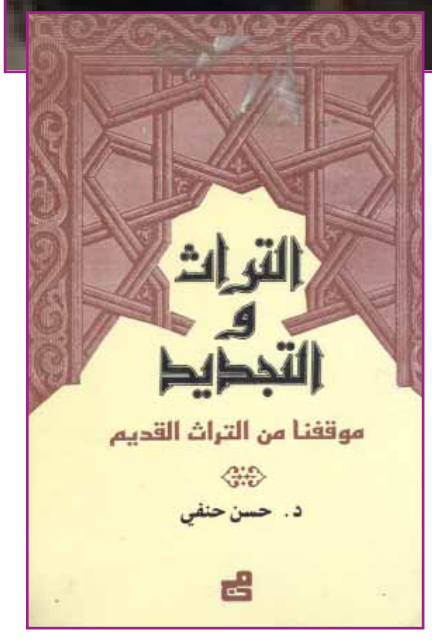

كتابات هوسرل ان هناك في الفلسفة مناطق جديدة لم تكن مأهولة من قبل ، ومنها قضية الدين عند هوسرل والتي سيخصص لها حسن حنفي اكثر من مقال كان ابرزها بعنوان « فينومينولوجيا الدّين عند هوسرل « – نشر في مجلة الفكر المعاصر عام ١٩٧٠ – ناقش من خلاله قضية الله عند هوسرل ، حيث يرى حنفي استنادا الى هوسرل ان الله لا يتدخّل في العالم، وليس له دور في حفظ العالم الخارجي، أو ما يعرف بـ«العناية الإلهيّة»، وايضا لا يتدخل في النّظام العقلي، وفي قوانين الرّياضة، وطبيعة الأشياء، والخلاصة: أنّ الله – عند هوسرل كما عند حنفي فيما بعد – غير فاعل في العالم، عكس تصورات اللاهوت الديني على اختلافها. لكن الله يتحوّل إلى موضوع حضاري عند هوسرل، الله كتطوّر وكفاية واكتمال، الله هو العقل الشامل، يظهر من خلال الإنسان، وينظر هوسرل إلى اللّه بوصفه دليلاً على كمال البشرية ، ويكتشف حسن حنفي من خلال ظاهراتية هوسرل أن الإرادة الإلهيّة تتحقق بتقدم التاريخ وقوانينه ، وان لا فرق بين الله والتقدم البشريّ، ويجد حسن حنفي ضالته في محاولة إيمانويل كانط التفرقة بين الدين والكهنوت ، وان دين العقل يحتوي على قوانين ومبادئ عملية ضرورية ، بينما الكهنوت هو دين الشعائر والمظاهر الخارجية التي تقترب من النفاق والنفعية وتقع في الجهل والخرافة .

عاش حسن حنفي حياته مفكراً تصدى لمشكلات التراث والهوية والاسلام المعاصر ، مثلما تصدى لمشكلات الفلسفة بجميع جوانبها بوعي فلسفي وفكري منظم ويقض ، ولعل مشروعه "مقدمة في علم الاستغراب" الذي يؤكد انه وضعه اسسه بعد ان رأى أن التيارات العلمانية منفصلة عن التراث وتاريخها العربي، في حين أنها تربط نفسها بتراث وتاريخ الغرب، وأصبحت امتدادًا لروافد وجذور الغرب، ، فالاستغراب هو الوجه الآخر والمقابل من "الاستشراق"، فإذا كان الاستشراق هو رؤية الشرق فقط، فإن علم الاستغراب يهدف إلى فك العقدة التاريخية المزدوجة بين الأنا والآخر. ويرى أن مهمة علم الاستغراب رد ثقافة الغرب إلى حدودها الطبيعية بعد أن انتشرت خارج حدودها إبان عنفوانه الاستعماري في حوار مع مجلة العربي وردا على الاتهام باعتماده على المناهج الغربية على الرغم من مهاجمة الغرب في علم الاستغراب، يرد حسن حنفي: كثيرا ما يسألني الناس بعد أن أبدع أحد الأعمال، ما منهجك في ذلك؟ ومهما أجبت فإنني الخاسر. لو قلت إن منهجي تحليلي أو وصفي أو بنيوي أو جدلي، قالوا: فلم تنقد الغرب إذن ؟ أنت ابن الغرب. فأرد: (وداوني بالتي كانت هي الداء). ومع ذلك يظل موقفي ضعيفا. لو قلت إن منهجي هو منهج تحليل التجارب، ردوني إلى أحد المناهج الغربية، (المنهج الظاهري) وأنا قمت برسالتي الأولى عن المنهج الظاهري في عام ١٩٦٥. ولي كتابان بالفرنسية في تفسير الظاهريات وظاهريات التفسير.

على أية حال يبدو أن المنهجية .وهي السمة الغالبة في الفكر الأوربي. أصبحت الإطار المرجعي الوحيد لأي بحث عربي يبدع شيئاً. إن المنهجية مهمة بطبيعة الحال، وأنا أردت المنهجية التي أشرت إليها في (التراث والتجديد)، لأن التراث هو حي بوصفه مخزونا نفسياً. وأنا أحيل النص إلى التجربة الشعورية التي أحياها، وفي الوقت نفسه أنقل التجربة الشعورية إلى تجربة العصر وتجربة المجتمع. إن منهجي هو منهج تحليل التجارب، تحليل النص باعتباره تجارب حية، لأن التراث مازال حياً فينا، وهو من ثم إعادة اختيار بين البدائل، فإن لم يسعفني ذلك أبدعت بدائل جديدة لم يبدعها القدماء. صحيح أن لي منهجاً ولكن مهما تكلفت في المنهج فإن الغرب قد فاز وأصبح الإطار المرجعي الغربي هو مقياس الحكم باستمرار، وأصبح البحث العربي في موقف لا يحسد عليه لأن إبداعه يحال دائما إلى مذهبية غربية. قد نكون بحاجة إلى مزيد من الوقت والعمر حتى تتعدد مراكز الإحالة فيما يتعلق بقضية البحث" – مجلة العربي الكويتية حوار جديد حول التراث والتحرر حزيران ١٩٧٩–

يرفض حسن حنفي ان يوضع في خانة الفلاسفة ، وهو يرى انه صاحب فكر ، لان الفيلسوف لديه نظرية " وانا ما ازال احاول وأجتهد وأفكر وأعيد تأويل الماضي ونقده " . كما انه يسخر من الذين يصفون كتاباته بانها نخبوية ، فما يكتبه حسب قوله هو ثقافة وطنية تحرك المثقفين " أحاول ان أحول الافكار الى المستوى الشعبي " ، يسخر من الذين يصنفونه في خانة فكرية معينة فالتصنيفات بالنسبة له عديدة ، فهو عند السلفيين ماركسي، وعند الماركسيين سلفي . يصر على ان منهجه في قراءة التراث هو منهج تحليل النص التراثي الديني باعتباره تجارب حية ، وأن مطالب العصر هي التي يجب ان تكون أساسا لتفسير وقراءة هذا التراث .

رحيل اليساري الإسلامي حسن حنفي يشعل خطاب التجديد والتجميد

أمينة خيري

اختار أستاذ الفلسفة ورائد "الاستغراب" ومفكر اليسار الإسلامي ومؤلف "من الفناء إلى البقاء" أن يبقى اسمه مقترناً بأقصى درجات الشجب والتنديد، وكذلك أقصى أنواع التبجيل والتأييد طيلة حياته وعند مماته.

أستاذ الفلسفة الذي رأى حتمية التنظير في المجتمع الأكاديمي تحريكاً للعقول وإنعاشاً للأدمغة، ولزوم السجال والنقاش في دوائر الفلاسفة والتطهير والتنقيح في العقل الجمعي رحل عن عالمنا تاركاً وراءه القدر نفسه من الجدل والسجال والخلاف والاختلاف الذي فجره طيلة مسيرته الفكرية بالغة الثراء.

طيب الله ثراه

«طيب الله ثراه" مصحوبة بعلامات تعجب واستفهام كتبها أحدهم تعليقاً على "تغريدة" تنعي رحيل حسن حنفي أحد أبرز مفكري تيار "اليسار الإسلامي" المنقرض ومدرسة "الاستغراب" المندثرة وواحد من قلائل في العصر العربي والإسلامي ممن حاربوا وحوربوا ليشيد ويؤسس مشروعاً فكرياً عربياً في زمن يكاد يكون منزوع الفكر.

ولأن فكر حنفي، الذي وافته المنية عن عمر ٨٦ عاماً، لم يمتثل للفكر السائد أو يكتفي بالنقل الدارج أو حتى يبني على تراث آمن، فقد اعتبر من قبل المؤسسات الدينية والقواعد الشعبية خارجاً عن السرب وأحياناً عن الملة. ولأنه آمن منذ عقود بضرورة إعادة النظر فيما تحول من تراث موروث إلى عقيدة غير قابلة للمساس، فقد وجد نفسه حائراً بين لقبي "رائد التنوير وقائد التجديد" و"الملحد الزنديق المعادي للدين».

التساؤل المستنكر لعبارة "طيب الله ثراه" المذيلة لنعي حنفي على "تويتر" نقطة في بحر هائج تسبب فيه مشروعه الفكري الذي يمكن وصفه بأنه "ضد التيار". فحنفي آمن منذ عقود بحتمية البحث في أغوار التراث، لا لمعاودة اعتناقه بل لفك التباساته. يقول في كتابه الشهير "التراث والتجديد: موقفنا من التراث القديم"، "مهمة التراث والتجديد حل طلاسم الماضي مرة واحدة إلى الأبد، وفك أسرار الموروث حتى لا تعود إلى الظهور. مهمته التحرر من السلطة بكل أنواعها، سلطة الماضي والموروث، فلا سلطان إلا للعقل، ولا سلطان إلا لضرورة الواقع الذي نعيش فيه وتحرير وجداننا المعاصر من الخوف والرهبة والطاعة للسلطة».

إعمال العقل

الكلمات التي رسخت لحنفي مكانة بارزة وأهمية ثاقبة في عالم الفكر والتجديد ومنصة إعمال العقل والتنديد بالنقل الأعمى هي ذاتها التي رسخت له صدارة في عالم التكفير والتنديد وصب اللعنات والمطالبة بضرورة العودة إلى صفوف السمع والطاعة وقول «آمين» من دون تفكير.

وبين التفكير والتكفير، عاش المفكر الراحل عقوداً صاخبة. ومنذ رحيله، أمس، غاص سكان السوشيال ميديا في بحور هائجة من المضي قدماً؛ إما في صب اللعنات على الرجل الذي وهب حياته لإعمال العقل أو في تأبينه والبكاء على أطلال قليلة باقية من شيء من العقل.

أمس البعيد، وتحديداً في صيف عام ٢٠٠٩، صبت "جبهة علماء الأزهر" غضبها على حنفي ومؤلفاته التي وصفتها بـ"كتب الملاحدة"؛ لأنه أشاد ودافع عن جائزة حصل عليها المفكر والكاتب الإسلامي المثير للجدل والملقب بـ"العلماني" (على أساس أنها سبة) سيد القمني. يومها أصدرت الجبهة بياناً شديد اللهجة حامي النبرة تساءلت فيه غاضبة "هل وراء هذا الاستحضار لحسن حنفي الذي كفر بعد إسلام تمهيد لتكرار الجريمة معه بمنحه مثل ما منح شقيقه سيد القمني في الكفر والغواية من وزارة الثقافة؟!" وذيلت الجبهة بيانها بدعاء، "اللهم اشدد وطأتك على هؤلاء الملاحدة الذين غرهم حلمك فخرجوا على الأمة بقضهم وقضيضهم يحادونك ويكذبون رسولك ويسخرون من شرعك وورثة نبيك، صلى الله عليه وسلم، أنزل بهم بأسك الذي لا يرد عن القوم المجرمين».

مصادرة ونفي

قوم آخرون، ولكن في الجبهة ذاتها مالوا إلى مصادرة أحد كتب حنفي في عام ٢٠١٣، بسبب ما وصفوه بـ«تضمنه إساءة للذات الإلهية». القرار الذي تم اتخاذه في اجتماع رأسه شيخ الأزهر أحمد الطيب تم نفيه بعدها بقليل، ولكن بعدما كان «مصدر مطلع» قد أدلى بتصريحات صحافية مفادها أن الكتاب تضمن العديد من العبارات التي تسيء للذات الإلهية وتتنافى مع أحكام ومبادئ الشريعة الإسلامية ما يعني ضرورة مصادرته.

وتعددت مصادر توجيه سهام التكفير والاتهام بالإلحاد والمطالبة بالتوقيف على مدار عقود طويلة من عمر حنفي. وعلى سبيل المثال لا الحصر، طالب أستاذ الشريعة الإسلامية في جامعة الأزهر وعضو هيئة كبار العلماء أيضاً أحمد كريمة في عام ٢٠١٦ بـ"تطبيق حد الردة على الملحدين الذين يشككون في أصول الإسلام"، مشيراً في إطار تعليقه على مقال نشر لحنفي عنوانه "هل غاب العقل النقدي من فكرنا الإسلامي؟" إلى أن "القرآن الكريم كتاب مقدس وليس سرداً تاريخياً"، ومذيلاً التعليق الناري باستغاثة للأزهر الشريف "من لكتاب الله يا أزهرنا».

"أزهرنا" ناعياً

«أزهرنا" سارع إلى نعي حسن حنفي عقب رحيله. كتب الإمام أحمد الطيب "الراحل الذي قضى عمره في محراب الفكر والفلسفة، وزخرت المكتبات العربية والعالمية بمؤلفاته وتحقيقاته". يشار إلى أن شيخ الأزهر له مؤلف عنوانه "التراث والتجديد: مناقشات وردود"، يرجح البعض أن يكون موجهاً خصيصاً للرد على ودحض أفكار وكتابات حنفي في شأن التراث. وقد أضاف أحمد الطيب في نعيه للأخير أنه يذكر له "مطالبته الغرب والمستشرقين بإنصاف الشرق والحضارة الشرقية والقيم الإنسانية النبيلة". نعي نبيل آخر جاء من دار الإفتاء، إذ قال مفتي مصر شوقي علام "الراحل كانت له جهود عظيمة في إثراء الثقافة والفكر والمكتبات، ليس في عالمنا العربي فحسب، بل في العالم الغربي كذلك».

نعي المؤسسات الدينية الرسمية للفيلسوف الراحل بطريقة رسمية مفهوم لدواع رسمية. أما رواد ومستخدمو وسائل التواصل الاجتماعي ففي حل من هذه القواعد. ولذلك تحفل المنصات بكم هائل من الشد والجذب، والتأبين والتنديد، والحزن والفرحة، والتعبير عن القلق لرحيل أبرز رواد دعاة التجديد والتطهير، وإشهار الشماتة في رحيل من طالب بتجديد ما هو غير قابل لذلك وتطهير ما هو شبه مقدس.

اتهامات الزندقة

مواقع إلكترونية عدة تحمل أسماء تتراوح بين الدفاع عن السنة وأهلها ورفع راية الدين والمتدينين أوشكت على إقامة الأفراح والاحتفال بالرحيل. «رحل الزنديق الملحد المتطاول على الذات الإلهية»، «نفق الماركسي العلماني لينتصر الدين رغم أنف الكارهين» وغيرها من الإشهارات تتسبب في جدل صاخب وإن كان محدوداً. صاخب لأن الموضوع زاعق، ومحدود لأن القاعدة العريضة من رواد مواقع التواصل الاجتماعي لم تسمع أصلاً عن المفكر الراحل! بالطبع دشنت الجيوش الإلكترونية المعتادة الدق على أوتار و"كي بورد" شاشاتها لمجرد سماع أن أحدهم "تطاول على الدين" لتدرأ الخطر الداهم وتذود عن الإسلام والمسلمين. وكان ما كتبه أحد المواقع من أن "خطر أفكار حسن حنفي وتطاولاته على الإسلام والمسلمين كان أكبر من الرسوم الكاريكاتيرية المسيئة" ليدخل الآلاف منددين مرة بـ"حسين يوسف" وأخرى بـ"هذا الذي لم يسمع عنه أحد».

تأبين وتطرف

في المقابل، تتوالى رثاءات وتأبينات للرجل الذي رأى أهمية تجديد الخطاب الديني وتطهير التراث قبل أن تتفاقم آثار التشدد وتنفجر روافد التطرف قبل تفاقمها بعقود وانفجارها بسنوات. والمفارقة أن الانفجار يتمثل في ما يكتبه البعض عن حنفي على شاكلة؛ "وأخيراً وبعد طول انتظار رحل مؤسس المدرسة المزرية التي أفرزت كل الملحدين العرب"، و"رحل الماركسي الإلحادي الذي سار على درب القطيعة المعرفية مع ثوابت الإسلام وأصوله وبقي الإسلام وأصوله. لا رحمه الله ولا أحسن إليه" وغيرها كثير. لكن غيرها كثير أيضاً يأتي في صورة تأبينات تتوالى في حق رائد فكرة التجديد الديني والتفسير الموضوعي للقرآن الكريم ومواجهة التغريب في العالم الإسلامي والربط بين العلمانية والتاريخ العربي وليس الغربي بالضرورة. أستاذ العلوم السياسية مصطفى كامل السيد يقول، "برحيل حسن حنفي تكون شعلة أخرى من شعلات الاستنارة والانفتاح على ثقافات العالم قد انطفأت". يضيف: "رحل الساعي إلى اكتشاف مبحث الإنسان في الفلسفة الإسلامية والمجتهد في الدعوة إلى يسار إسلامي الذي لا يكل في الدعوة إلى فهم صحيح للدين يعانق العلم والعدالة الاجتماعية ويتحاور مع ثقافات العالم مع الاحتفاظ بموقف ناقد لها". وختم تأبينه بالقول، "حياتنا الفكرية ظلماء، وهانحن نفتقد بدراً كان يضيء بعض جنباتها". جنبات المفكر والمجدد والفيلسوف والأكاديمي حسن حنفي تبدو واضحة بعد رحيله حيث ما زال توصيفه متأرجحاً بين الإسلامي والماركسي والمتنور والملحد والمجدد والهادم والعلماني واليساري الإسلامي. والأهم من كل ما سبق "من رأي أهمية التجديد قبل حتميته بعقود.

عن الاندبندنت عربية

حسن حنفي.. سيرة تنوير

محمد المحمود

قبل بضعة أيام، وتحديدا في الحادي والعشرين من تشرين الاول ٢٠٢١، رَحَل عن عالمنا أحدُ أهم أعلام الفكر العربي المعاصر، رَحَل المفكرُ العربي الموسوعي/ حسن حنفي، مُخلِّفًا وراءه إرثًا عظيمًا من البحوث والمراجعات الإستقصائية في التراث والمعاصرة، وعَددًا غير قليل من التنظيرات الرُّؤْيَويّة ذات النَّفَس التنويري، التي تُحاول النفاذ إلى الواقع من خلال التاريخ/ التراث، وصولًا إلى المستقبل، إلى غَدٍ عربي/ إسلامي أفضل، إلى اسْتئناف حضاري كان يَتوقّعه ويَأمله ويُراهن عَليه، وقد أحرق عمره حتى آخر قطرة منه ـ وفي رَهْبانية فكريّة استثنائية ـ كإسهام فردي من قِبَلِه في دفع الثمن المطلوب للوصول إلى ذلك الهدف المنشود.

يقف الراحل/ حنفي في الصف الأول من المفكرين العرب الكبار في القرن العشرين وأوائل هذا القرن/ الواحد والعشرين. هو، في تقديري، من رجال الطبقة الفكرية الأولى التي يحتلها بجدارة كلٌ من: محمد عابد الجابري، حسن حنفي، الطيب تيزيني، جورج طرابيشي، عبد الجبار الرفاعي، عبد الله العروي، محمد أركون، عبد الوهاب المسيري، أدونيس، رضوان السيد. وفي طبقة تالية: مطاع صفدي، صادق جلال العظم، محمد جابر الأنصاري، عبد الإله بلقزيز، فهمي جدعان، نصيف نصار، نصر حامد أبو زيد، خليل أحمد خليل. وطبقة ثالثة: هاشم صالح، وجيه كوثراني، برهان غليون، يحي محمد، مصطفى حجازي، كمال عبد اللطيف، علي أومليل، هشام جعيط، محمد الحداد، جابر عصفور...إلخ الأسماء الكبيرة في عالم الفكر العربي التي قد يختلف معي بعض بالباحثين في تحديد قيمتها الاعتبارية والعملية في إثراء ساحة الفكر العربي.

لا يخفى أن لكل واحد من هؤلاء مساره الفكري الخاص (المتباين في درجة اختصاصه/ فرادته). بعضهم تتقدم أهميته من خلال كونه ارتاد حقولا معرفية لم تكن على قائمة اهتمام المفكرين/ الباحثين، فأسس لها، ودعمها بإسهامات مُتفرِّدة، واستقطب لها شواغل الفكر وهموم المفكرين. وبعضهم الآخر اشتغل على مُنْجَزات سابقة في حقول مركزية، ولكنه تجاوز السابق، وحَقّق. بفعل استثمار التراكم البحثي/ المعرفي. ما يمكن اعتباره علامات فارقة في الحقل المعرفي الخاص، وفي الشأن المعرفي العام. ومن هؤلاء بلا شك، الراحل الكبير حسن حنفي.

لم يكن حنفي مجرد مفكر/ باحث استثنائي في ترهبه الفكري، بل كان مناضلا بفكره، ولفكره. كان. كما يقول. يريد أن يربط عالم الفكر بالواقع، أو أن يجعل الواقع يتحدث بلسان الفكر، الفكر الذي هو هنا: "التراث"، ولكن بعد تثويره بالانتقال به من "العقيدة" إلى "الثورة"، بتحويل "اللاهوت" وتمثلاته في عالم الأذهان، إلى "تحرير" في عالم الأعيان. إنها قراءة

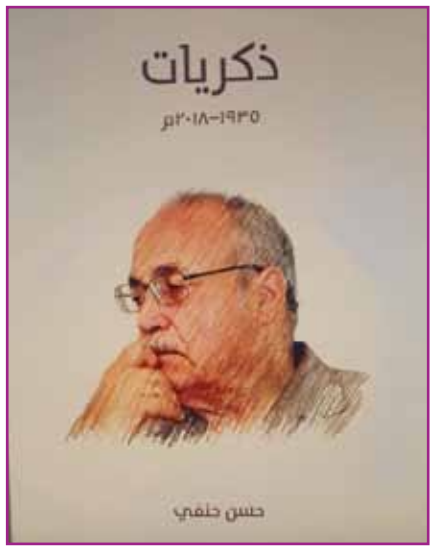

تأويلية جديدة، وعابرة/ مُتَجاوزة للتراث. ومن حيث هي كذلك، فهي صادمة لمجمل التصورات السائدة عن التراث، وعن كيفية التعامل مع التراث (= فهم التراث)، وعن موقع التراث من الواقع.

كان حنفي يبدو . في نظر المُوغلين في الاستقطاب الفكري/ الأيديولوجي . مُرَاوغًا، أو غير حاسم في خياراته الأساسية، خاصة في تبنيه لمشروع اليسار الإسلامي. أي أنه إذْ يستعصي على التصنيف الأحادي، يبدو . في نظر المُصَنِّفين الأحاديين. مُرَاوغًا أو مُخَادعًا، وربما منافقا. يقول حنفي: كان الإسلاميون يرون أنني شيوعي في ثوب إسلامي، فيما كان الشيوعيون يرون أنني إخواني يُخْفي إخوانيّته. كان اليسار الماركسي، وربما الليبراليون أيضا، يرونه إسلامويًا في العمق؛ لعدم حسمه/ قطيعته مع التراث؛ وربما لانتمائه إلى الإخوان في مراهقته الأولى.

لقد أثر حنفي في جيل كامل من الباحثين في العالمين: العربي والإسلامي على وجه العموم، وفي مصر على وجه الخصوص. وكان يرى أن دوره الأهم. والأكثر تأثيرا وَحَسْما على المدى البعيد. هو تأسيس هذا "الجيل التنويري" داخل أروقة الجامعات وفي مراكز البحوث والندوات المتخصّصة؛ لا في فتح الجبهة الجماهيرية الواسعة المنحازة بقوة إلى نمط التفكير السلفي السائد؛ لأن فتح مثل هذه الجبهة من شأنه أن يُعَجِّل بالصدام مع الوعي الجماهيري ومع مؤسساته الراسخة، وذلك في معركة محسومة نتائجها لصالح خطاب التقليد والتبليد المتوارث. بوصفه خطاب السلطة. منذ القرن الهجري الأول، وتحديدا، منذ مفتتح العصر الأموي.

في المقابل، كان كثيرٌ من هؤلاء التلاميذ المباشرين له، المتحمِّسين لخطه الفكري (وأبرزهم: نصر حامد أبو زيد الذي جادل أستاذه حنفي كثيرا في هذا الأمر)، يرون ضرورة الانخراط في الخطاب الجماهيري الذي ينتهبه وعاظ السلفية التقليدية بالكامل، وأن لا وقت للانتظار لتكوين عدة أجيال من الباحثين المستنيرين؛ لأن "الماكينة السلفية الهائلة" لن تترك الساحة إلا قاعًا صَفْصَفًا مقفرة من كل رؤى التنوير، أي أن الانتظار سَيُعَقِّد الوضع، وسيجعل التغيير أشدّ؛ هذا إن لم تصل عواصف المدّ السلفي الرجعي إلى الجامعات ومراكز البحوث ذاتها، فتَنفي وتُقصي وتُلغي المعتصمين بها من رهبان الفكر المستنير.

رموز الفكر المستنير داخل أروقة الجامعات ومراكز البحوث؛ لصناعة أجيال مستنيرة متعاقبة، فتكون هذه الرموز بعيدة عن الصدام المباشر مع الوعي الجماهير السلفي الماضوي. وبهذا تتجنّب احتمال التصفية النهائية (التصفية المادية أو المعنوية). ولكن. وفي الوقت نفسه. لا بد من نزول بعض رموز الفكر المستنير إلى معترك ساحة الوعي الجماهيري، والاصطدام معه في خطوط التمايز الفاصلة بين تراث عصور الانحطاط والتخلف وتراث عصر التنوير التقدمي؛ حتى لا يَتَسيَّد. بالكُلّية. تراث الانحطاط/ الأثري السلفي على مجمل الوعي العام.

وعلى أي حال، يجب علينا، ونحن نتحدث عن حنفي. أو حتى غيره من رموز الفكر العربي. أن نتذكّر جيدا ودائما "أزمة حرية التعبير"، أي أنه كان يُفكِّر في وسط عربي إسلامي. فحتى وإن كانت كتاباته تُخاطب طبقة راقية من المفكرين والباحثين والمهتمين بالشأن العام، فقد كان يعي أنه يُلامس خطوطا حمراء صاعقة أحيانا، كما كان يعي أنه لا يَستطيع الاندراج في خط منطقي مستقيم إبان تقريره لكثير من أفكاره الراديكالية فيما يخص التراث الإسلامي، بل لابد. كجزء من تكتيك الحرب الفكرية. من الكر والفر، من الظهور والاختفاء، من إشعال فتيل الفكرة والتظاهر بإطفائها في الوقت نفسه، من النفي في سياق الاثبات ومن الاثبات في سياق النفي؛ ما دام كل هذا مفهوما/ مُتَفَهَّمًا من قبل المتعاطين. بإرادة وعي. مع هذا النمط من الأطروحات.

نعم، وبسبب من "أزمة حرية التعبير"، نستطيع التأكيد على أن حنفي قال. في شأن علاقتنا بالتراث. كل شيء يريد قوله؛ ولم يقل شيئا! وهذا ما جعل المفكر العربي الكبير/ جورج طرابيشي ينتقده في "ازدواجية العقل"؛ من حيث حجم التناقضات التي تزخر بها كتابات الراحل/ حنفي. كان طرابيشي يُفكّر ويكتب وهو متكئ على أريكته/ على حريته وأمنه وأمانه في "باريس"، منتقدا تناقضات حنفي الذي كان يُفكّر ويكتب وهو متكئ على قلقه/ قيده ورعبه في "القاهرة»!

يذكر المفكر والمترجم السوري/ هاشم صالح (المعني بترجمة تراث محمد أركون) أنه التقى بحسن حنفي، فقال له حنفي: أنا لست مثل صاحبك (= أركون) ولا أمتلك ترفه الفكري، فهو يستطيع أن يُشرِّح التراث الفكري ويُفككه كما يشاء ويشتهي؛ لأنه جالس على ضفاف "نهر السين"، حيث لا يخشى أي شيء، وأمّا أنا فجالس على ضفاف "نهر النيل" حيث يحاصرني الشارع والتقليديون الأصوليون.

ردّ هاشم صالح على حسن حنفي: "معك حق، وأنا شخصيا لو ذهبتُ إلى العالم العربي وعشت فيه، لما تجاسرت على كتابة نصف أو حتى ربع ما أكتبه في "باريس" بل لما تجاسرت على ترجمة ما ترجمته، فما بالك بالكتابة؟! فالمثقف مشروط بالوضع التاريخي والبيئة التي يعيش فيها، ولهذا السبب يهرب المثقفون العرب إلى الخارج لكي يفكروا بحرية».

من هنا، يجب أن نأخذ في الاعتبار. ونحن نقرأ حنفي أو غيره من المفكرين العرب. أنه كان يقول ما يقوله في "ظرف زمكاني" خاص، وأن تكون لدينا القدرة على قراءة اللامسطور في المسطور، علينا أن نمتلك القدرة على قراءة/ تشكيل "المنطق" مُتَأوِّلا لحساب التنوير، في خضم "اللامنطق، المُفتّت المراوغ"، وأن نحاول تقريب النقاط من مواضعها على الحروف، إن لم نستطع وَضع النقاط على الحروف.

عموما، بين المَقول صراحة والمقول ضِمْنا، بين ما قاله حنفي على حين رغبة وأمل، وما قالَه على حين يأس وخوف ووَجَل، يبقى حنفي رائدا كبيرا من رُوّاد التنوير العربي، يبقى الابن البار، والحفيد المُسْتَنار، لأجيال متواصلة من الكبار، كعباس العقاد، وطه حسين، وأحمد أمين...إلخ. لكن، ومع ثراء مشروعه وإيجابيته في العموم؛ إلا أن أشد ما يعيبه هو ذاك "الجرح النرجسي" الذي يظهر أثره في علاقته بالغرب والتراث الغربي، حيث يبقى هذا الجرح خيطا ناظما لتصوراته الفكرية، ليس في كتابه "مقدمة في علم الاستغراب"، أو ما شابهه من بحوثه، فحسب، وإنما في مجمل أعماله. فموقفه الضدي من الغرب يكاد يكون هاجسا مُقْلقا، بل هاجسًا مَرضيًّا؛ حتى لَتجده. في بعض الأحيان. ينحدر إلى مستوى الحديث الشعبوي المبتذل عن الغزو الفكري.

أخيرا، وأنا استعرض مُتَأملا كُلّ هذا التاريخ الطويل من النضال الفكري الذي استنزف حياة عبقري بأكملها، أتساءل بحزن وغضب ويأس وإحباط: هل تعرف هذه الأمة قيمة ما قدّمه هؤلاء في سبيل انتشالها من قاع انحطاطها؟ هل تُقَدِّر. بوعي. تضحياتهم اللامحدودة؟ وإذا كانت الإجابات سالبة هنا، هل تستحق هي مثل هذه التضحيات؟ بل هل تستحق أصلا أن تظفر بمثل هؤلاء العباقرة العاشقين له حَدَّ الوَلَه المجنون؟!

عن الحوار المتمدن

manarat

www.almadasupplements.com

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير
فخري لبيب

رئيس التحرير التنفيذي
علي حسين

سكرتير التحرير
رفعة عبد الرزاق

طبعت بمطابع مؤسسة المدى للاعلام والثقافة والفنون

حسن حنفي.. مفكر التجديد داخل التراث

د. علي المرهج

حسن حنفي الذي فقدناه اليوم كان من المفكرين والكتاب القلائل الذين اشتغلوا على التعريف بالظاهرتية بوصفها فلسفة قادرة على الربط بين الفكر والواقع ربطاً ديالكتيكياً، ليدعونا للاهتمام بالفكر على أســاس أنه صورة من صــور الواقع، وهو اليســاري الذي آثر الكتابة عن «اليمين واليسار في الفكر الديني».

إنــه المفكر (الإشكالي) (د.حســن حنفي) الذي تناوله المفكر (جــورج طرابيشي) مُنتقداً لفكره في كتابين هما "مذبحة التراث" و "المثقفون العرب والتراث.. التحليل النفسي لعصاب جماعي».

قــدم لنا حسن حنفــي دراسات وترجمات عن أهمية المنهــج "الفينومينولوجي"، ليكشف لنا عن أزمة الإنسان واغترابه، وليس بغريب عندنا نحن العرب والمسلمين العيش في الاغتراب، سواء في علاقتنا بالتراث (الماضي) أو في علاقتنا بـ (الحاضر) = (الحداثة).

في مشروعــه "الــتراث والتجديــد" يسعى حســن حنفي لتوظيــف المناهج المعاصــرة في قراءة الــتراث لا لأجل استحضاره واعــادة وجوده بيننا، ولكنه يُنتــج استراتيجية في نزوع (سلفي) للمحافظــة علــى حضور الماضي فينــا، بوصفه لحظة إبداع لا بد لنا مــن استيعابها لأجل صياغة لحظة تشبهها أو تتجاوزها في تفوق الحضور الفاعل.

حســن حنفي الذي يحار بين اختيــار اليمين أو اليسار، فتارة تجــده في أطروحاته أقرب لليمين لأنــه يتمســك بالماضي (التليــد) وبمنجزاته، وتــاره أخرى تجــده يسارياً خــارج التصنيف في التبنــي الجاهــز والاجرائي على أنه تراثي أو حداثي، ليكــون الحامل لمشعل "لاهوت التحرير" الــذي يُعيد لنــا انتاج الفكر الاعتزالي الذي يمنح الإنسان حريته في الاختيار، وأن الله لا يتدخل في مــا يختــاره الإنسان، لأنه هو المسؤول عن اختيــاره، والأمر عند حنفي مقصود، فهو بقدر ما يحمــل من سعي لتحرير الإنسان بوصفه هو الحر والمسؤول عن اختياره، لتكون القدرة الإلهية بــكل كمالهــا إنما هي ليست ضد أو مع الإنسان فيما يختــاره، لأنها مُنزهة عن نواقص البشر في الاختيار للخير أو الشر.

في كتابــه "مُقدمــة في علــم الاستغراب" يسعى (حسن حنفي) لفتح علمــي جديد لم يُحقق فيه ما هو جديد، إل فضل التسمية "الاستغراب" في مقابل "الاستشراق"، وعلى ما بين المفهومين من تبايــن وتضاد، وعلى ما في ما قدمــه (حسن حنفي) من جهد متواضع فيما أسماه "الاستغراب" الذي لا يُعدّ غير محاولة لاعادة كتابة تاريخ الفكر والفلسفة الغربية وفق رؤيته.

لم يكــن "الاستشــراق" نزوع فردي لمفكرٍ غربي، لأن الاستشــراق في الغرب فردي ومؤسساتي، وهــو يرتبط بنظــام "كولنيــالي" أحياناً، وقــد يرتبط بنزوع فــردي عند مفكريــن غربيين لفهم الشرق ومعرفته.

يرتبط "الاستشراق" بـ "الأنثربولوجيا" وهما علمان متداخلان مؤسساتياً، ولا قدرة لصاحب "الاستغراب" وداعيته أن يُحقق ما حققه مفكروا "الاستشراق».

قد يكون الطهطاوي من دون أن يجترح مفهوم "الاستغراب" كان هو صاحب المحاولة الأولى في التأسيس للاستغراب، بعد أن عاش التجربة الغربية في باريس وكتب عنها وقرأ لفلاسفة "العقد الاجتماعي" الفرنسيين أمثال: جان جاك روسو وفلاسفة التنوير أمثال "فولتير" و "ديدرو" و "مونسكيو"، فكتب كتابه الشهير "تلخيص الإبريز في تخليص باريز».

مــا يُميز (حسن حنفــي) أنه كان مُقداماً في ولوج مباحثاً جديــدة في الفكر الالحداثي والتراثي، ويكشــف عــن مناطــق بكــر للحرث، فهو الــذ ترجم لنــا كتاب "سبينــوزا" "رسالــة في اللاهوت والسياسة" ليكشف لنا عن أهمية النقد التاريخي للأديان.

مشكلــة (حســن حنفي) أنه يعيشــ الحاضر ليُجدد فيه الماضــي (التراث)، ليُنتج لنــا رؤية حول "تجديد التراث" فنجده تاره يتقاطع مع "التراث" وكأنه يرفضه برمته، وأخرى تجده وكأنه "سلفي" يتعنى به ويسحرنا بمقولاته التأصيلية، ليُنتج لنا نصاً مرتبكاً لتكون "الاصالة" فيه مرادفة لـ "المعاصرة»!!.

فتكون قيمة "التراث" كبيرة لأنه يُقدم لنا "نظرية علمية في تفسير الواقع"!، ولكننا لا نجد في مــا قدمــه (حسن حنفي) ما يُسعفنا نظرياً أو عملياً في "التراث" ليكون عاملاً مساعداً لنا في فهم الواقع ومتغيراته ليُدخلنا في التنظير لرؤى رومانسية حول "العروبة" و "الإسلام».

(حســن حنفــي) يعيش ويكتب ليُنتج لنــا نصاً لا يختلف كثيراً عما أنتجــه (محمد عمارة) دوران في النصــ التراثي لفك إشكالاتــه بالاستعانة بمناهج غربية ماركسية وفينومينولوجية هيجلية أو هوسرلية، لتدور في مدار الوعي "النكوصي العربي" فتدور دورتها "الأيديولوجية" ليعود (حنفــي) فيهــا ليضع نفســه موضع المفكر (الأيديولوجــي) الذي يتبنى موقفــاً ويُدافع عن موقع يحضر في للتأثير.